الديموقراطية بين النظام العالميّ الجديد والأنظمة العربيّة القديمة(*)

د. سهيل ادريس

قبل أكثر من خمسةٍ وعشرين عاماً، انبرى مفكّرٌ أمريكيٌّ تقدميٌّ هو نعوم تشومسكي ليحدّد بجملة واحدةٍ قصيرةٍ، لكنْ معبّرة، خلاصةَ مسيرةٍ طويلةٍ من البحث والكتابة في مسؤولية المثقّفين، إذْ كانت الولاياتُ المتحدة تخوض حربَ سفكِ دماءٍ شرسةٍ ضد الشعب الفيتنامي، وكان إعلامُها ومثقّفوها التابعون يزوّرون الحقائقَ ويزيّنون الإجرام الأمريكي، فانبرى تشومسكي بجملته الشهيرة التي أصبحت هاديةً لكل مثقّفي العالم الأحرار:

«إن مسؤولية المثقف هي أن يقول الحقيقة ويفضح الأكاذيب!»

أيّتها الأخوات، أيّها الأخوة، يا أصدقاءَ الدربِ الطويلِ الذي مانزال في بدايته؛

من لبنان جئناكم وقد نفضنا عنّا ثوبَ الحربِ الأهليةِ، لنجدّد إيماننا بالمقاومة الوطنية، اللبنانية والعربية، ركيزةً أساسية لمستقبلِ العدالةِ العربيةِ في حاضرٍ أمريكيّ يستظلّ بـ «الشرعية الدولية» من أجل فرض «حقائقه» التي لا تعني سوى نَحْوِ حقائقِنا نحن: حقائقِ توقِنا إلى السيادةِ على كلّ أراضينا من المحيطِ إلى الخليج، وشوقِنا إلى استغلالِ مواردِنا بأنفسنا من أجلِ أولادنا وأحفادنا.

ولعلكم تذكرون، أيتها الصديقاتُ والأصدقاء، أننا في مثل هذه الساعة لسنتين خَلَتا، كنا مُسمَّرين أمام شاشات الـ CNN نقضم أظافرنا أو ندخّن السيكارةَ تِلْوَ السيكارة بانتظار أن يطلع علينا «برنارد شو» أو «بيتر أرنيت» أو جورج بوش نفسه، ليعلنوا بدءَ الحربِ الأمريكيةِ على العراق. وكنّا نخافُ على شعبِ العراق، وكنّا نخاف على شعبِ الكويت، وكنا نخاف على الجنود العرب من دمارٍ شاملٍ وتَشْويه. وكنا، نحن الكتّابَ والشعراءَ والفنّانين، نشعر بأن مصيرنا برّمته أصبحَ في يدِ شخصٍ واحدٍ أو شخصيْن اثنيْن، بعد أن انفرط عقدُ الجامعة العربية التي حيل بينها وبين أن تحاول حلَّ المشكلةِ عربيّاً، وتفرّق المثقّفون العرب أيدي سبأ. ولم يكن أحدٌ منا يثق في إعلامه العربيّ، الثوريّ والرجعيّ منه على حدٍّ سواء، بعد تجربتيْ ٦٧ و٨٢ المريرتين. وكنا جميعاً نشكّ في صحة الأنباء التي تنقلها إلينا الـ CNN، ولاسيّما بعد أن ضربتِ الإدارةُ الأمريكيةُ طوقاً عليها، بدعوى الحفاظِ على أسرار الولايات المتحدة العسكريّة.

والآن، بعد مرور سنتين على «عاصفة الصحراء»، نطالع حقائقَ لم يُطلعْنا عليها آنذاك لا النظامُ العالميُّ الجديد، ولا أنظمتُنا العربيةُ القديمة:

- من هذه الحقائق أنَّ أكثرَ من مئةٍ وثمانيةٍ وخمسين ألف عراقي قُتلوا على يد القواتِ المتحالفة، بينهم ٦١٢، ٣٩ امرأة، و ١٩٥، ٣٢ طفلاً. وكان بعضنا قد ظنّ أنَّ صواريخَ النظامِ العالميّ الجديد لا تصيب إلّا الأهدافَ العسكرية!

- ومن هذه الحقائق ما ذكره الضابط «بيني وليامز» في ١٢ أيلول ١٩٩١، إذ أكّدَ أنَّ الجيشَ الأمريكي الذي اقتحم الخطوطَ العراقيةَ الدفاعيةَ الأولى في الأيامِ الأولى من الحرب البريّة قد استعمل جرّافاتٍ ترابيةً رُكّبت إلى مقدّم الدباباتِ الأمريكية «في دفن مئاتٍ أو آلافٍ من الجنود العراقيين - وكان بعضُهم مايزالون أحياء - تحت أطنانٍ من الرمل».

نُضيفُ إلى هذه الحقائق ما حصلَ للكويت وللكويتيين من دمارٍ وخراب واعتداءاتٍ يندى لها الجبين، وما حصل للمواطنين العربِ فيها وفي غيرِها من تشريدٍ وتهجيرٍ وطَرْد، وما حصل للأكرادِ العراقيينَ من مآسٍ، وما يحدث اليوم من تهميشٍ للقضية الفلسطينية.

أيّها الزملاء،

لسنا هنا لنندبَ ماضيَنا، وإنما نَذْكُر نماذجَ من الحقائق، لنرى إلى خديعتنا، ولنحثَّ السيرَ باتجاهِ وحدتنا من جديد. صحيحٌ أنّ الكاتبَ العربي لن يكون قادراً على أن يَقِفَ الحربَ، ولا أن يردَّ القمعَ، لكنه يستطيع إذا تكاتفَ مع أخيه الكاتبِ العربيّ في فضحِ

(*) كلمة أمين عام اتحاد الكتّاب اللبنانيين، رئيس الوفد اللبناني إلى مؤتمر الأدباء العرب الذي عُقد في عمّان بين ١٢ و١٩ كانون الأوّل.

الكذبِ وقولِ الحقيقة، أن يعجّلا في بزوغِ فجرٍ أفضل.

وإنَّ اتحادَ الكتّاب اللبنانيين الذي دعاكم، من زهاء عشرين سنة في تونس، يدعوكم اليوم مجدداً إلى ميثاقِ شرفٍ بالدفاعِ عن حق الكاتبِ العربيّ في التعبير عن رأيه. ذلك أن الديموقراطيّة التي تشكّل حريةُ التعبيرِ البندَ الرئيسيَّ فيها، هي أهمُّ ضمانةٍ في عدم قيامِ كوارثَ وكوارثَ مضادةٍ في المستقبل.

والحقُّ أنّ الديموقراطيّة معرّضةٌ اليوم للخطرِ الشديد يأتيها من جوانبَ متعددةٍ:

- يأتيها من أنظمة العسْفِ والظلمِ والتجويعِ والإكراهِ والترغيبِ والترهيب، وهي أنظمةٌ لاتزال تتحكم بكثيرٍ من بلادنا العربية.

- ويأتيها كذلك من نظامٍ دوليّ جديد لا يهمّه من العرب سوى نفطِهِم وجهلِهِم، وإلّا لَكَانَ ذلك النظامُ الذي تتزعمه الولاياتُ المتحدةُ قد اجتاح الكيانَ الصهيونيَّ، إحقاقاً لحقّ الشعب الفلسطينيّ واللبنانيِ والسوريّ والأردنيّ والمصريّ، أوْ لَكَانَ اجتاحَ بلداناً عربيةً كثيرةً تُنتهكُ فيها حقوقُ الإنسانِ بطريقةٍ تُذكّرُ بالأساليبِ المتّبعة في القرون الوسطى.

- ويأتي الديموقراطيةَ خطرٌ ثالثٌ يستفحلُ انتشارُه، هو خطرُ الجماعاتِ التي تَتَسَربل بالدين زُوراً وبُهتاناً، من أجل الاقتصاصِ من أعدائها السياسيين. ولقد وقع ضحيةَ هذه الجماعات كتّابٌ من خيرةِ المواطنينِ الشرفاءِ، أمثال حسين مروة ومهدي عامل وفرج فوده.

- والخطر الرابع، وقد يكون أخطرَ الأخطار، هو ذاك القادمُ من المثقّفين الذين يتولّوْن مناصبَ رسمية. ولا بد أنكم تسمعون عن الرقابة التي تُفرض كلَّ عامٍ على دور النشر والمجلات الأدبية، وتسمعون عن تجريم الكتّابِ والمؤلفين ومنع إنتاجهم من دخول البلاد بسبب مواقفَ سياسيةٍ معيّنة اتخذوها في فترةٍ زمنيةٍ من هذا النظامِ العربي أو ذاك.

أيتها الأخوات، أيها الأخوة،

أمن اللازم أن نأتي في كل مؤتمر لنردّد أمامكم الكلامَ ذاتَه في الديموقراطية والحرية وقمع السلطة وردّ العدوان؟

أم ترانا نسأل سؤالاً نقيضاً للسؤال السابق:

- إلى متى سنبقى نصرخ؟ إلى متى سنفضح الأكاذيب، ومتى تراهم سيسكتوننا؟

أيها الأصدقاء

إننا نرجو لمؤتمرنا هذا، في أزمتنا العربية الكبيرة هذه، أن يُصيب المؤتمرون فيه من النجاح في الدفاع عن الثقافة العربية والمثقف العربي، أكبرَ مما أصابته مؤتمراتنا السابقة من تأثيرٍ في صنع القرار السياسي العربي.

ونَعِدُكم، نحن اللبنانيين، وقد انزاح عن كواهلنا كابوسُ الحرب، وأُنشئت في بلدنا أولُ وزارةٍ للثقافة، أن نضاعفَ الجهودَ، ضمن اتّحاد كتّابنا واتّحاد الأدباء العرب، من أجل ثقافةٍ عربيةٍ أوفرَ إبداعاً وأعمقَ تأثيراً.